

نكبات قسنطينة خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر

أ. حمام صورية*

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوعا تاريخيا في شقيه السياسي - الحربي والاجتماعي بعنوان "نكبات قسنطينة خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر"، ومن خلال ما وجد من مصادر ومراجع ، تمّ التعرض في مقدمة البحث لتبعية قسنطينة للدولة الحفصية، حتى يتسنى للقارئ فهم السبب الرئيسي والمباشر للهجمات العسكرية التونسية المتكررة على قسنطينة. تناولت الدراسة هجوم مراد باي سنة 1700 وهجوم حمودة ياشا سنة 1807، مع الإشارة إلى أن المناوشات بين الحكام كانت سببا كافيا لإعلان الحرب على الطرف الآخر، وختم البحث بالتطرق لمختلف موجات الطاعون الآتية من الشرق أو الغرب التي اجتاحت المدينة؛ ما يؤدي إلى القول: أن الموقع الجغرافي لقسنطينة؛ فرض عليها أن تكون محل صراع بين الحكام من جهة، ومكان استقطاب للأوبئة من جهة أخرى.

Abstract:

This study deals with an historical subject in its political, military and social part, entitled: "The calamities of Constantine in the 18th century and the beginning of the 19th century". And, through what was reported in the literature sources and references, it is exposed in the introduction of this work the dependence of Constantine to the Hafsides, so that the reader can understand the main and direct reason of the military and repeated attacks of Constantine by the Tunisians.

* - باحثة في التاريخ الحديث والمعاصر بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران 1، الجزائر.

The study reports the attack of Bey Mourad in 1700 and that of Hamouda Bacha in 1807 by highlighting the hitches between the leaders that was the sufficient reason of the declaration of war against the opposing part. The study concludes with the way the different waves of plague epidemics coming from the East or the West had invaded the city, which leads to say: the geographical location of Constantine had forced it to be a source of conflict on one hand, and an attractive pole of epidemics on the other hand.

مقدمة:

إن الموقع الجغرافي لمدينة قسنطينة فرض عليها أن تكون محل نزاع وصراع بين بايات تونس وبايات قسنطينة ويعود أصل الصراع إلى الوجود الحفصي في المنطقة. ومنذ تلك الحقبة الزمنية أصبحت قسنطينة تتمتع بمكانة سياسية. كانت تابعة للدولة الحفصية حيث شملت إدارتها مدنا كعنابة وبجاية وبسكرة وتقرت، واعتبرت قسنطينة القاعدة الثانية للحفصيين بعد العاصمة تونس، حيث كان يعين عليها ولي العهد الحفصي أو أمير مؤهل يتميز بالخبرة والحنكة السياسية والعسكرية. ثم أصبحت في العهد العثماني المدينة الثانية بعد العاصمة مدينة الجزائر، وهي عاصمة المقاطعة الشرقية (بايلك الشرق) الممتدة من شواطئ البحر المتوسط شمالا إلى صحراء الزيبان (ولاية بسكرة) جنوبا، ومن الحدود التونسية شرقا إلى بلاد القبائل غربا.

يرتكز موضوع هذا المقال على أكبر هجومين تعرضت لهما مدينة قسنطينة من طرف الجيش التونسي بمجرد حلول القرن الثامن عشر، ثم تعاد الكرة في بداية القرن الموالي، ولم تتوقف نكبات هذه المدينة عند ما هو بشري، بل اختتم البحث بأشهر موجات الطاعون التي اجتاحت المدينة خلال القرن الثامن عشر وما خلفته من آثار جسيمة على المستويين الإقتصادي والإجتماعي.

إن الغرض في تناول هذا الموضوع هو البحث في شخصية حكام البلدين وتأثيرها على العلاقات بين الشعبين، إلى جانب البحث في الأوضاع الخارجية والداخلية وانعكاساتها في دفع العلاقات نحو اتجاه محدد. وهذا يدفع إلى التساؤل عن نمطية العلاقة بين بايات تونس وبايات قسنطينة وأثارها على الهجمات عسكرية التي شهدتها مدينة قسنطينة والنكبات الطبيعية مترامنة لهذا الظروف؟

1 . أول معاهدة ضبط الحدود:

كانت إرادة بايات تونس في استرجاع مدينة قسنطينة تجعل الصراع يتكرر خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر والقرن السابع عشر إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر، رغم إبرام أول معاهدة ضبط الحدود مع إيالة تونس عام 1617¹ في عهد يوسف داي حاكم تونس، وأهم ما جاء فيها: "أن يكون واد سرات² المتفرع من مجردة خط حدود يفصل بين الإيالتين"³.

بقيت القبائل الكبرى تتسبب في نشوب الخلاف بين الإيالتين بحرقها للصلح. في ماي 1628 التقى الجيشان الجزائري والتونسي فانتهت المعركة بهزيمة الجيش التونسي في معركة قرب مدينة الكاف وتم إبرام اتفاق من جديد⁴ وأهم ما جاء فيه: . إبقاء مجرى وادي سرات الحد الفاصل بين البلدين في المناطق الجنوبية⁵.

. تحديد الحدود بين البلدين من(وادي ملاق إلى الكرش، فقلوب النيران ورأس جبل الحافة ثم إلى البحر شمالا)⁶.
. البرج الموجود قرب مدينة الكاف تم هدمه.

. كل فرد ينتقل إلى الضفة الأخرى من الواد يفقد جنسيته ويعلن ولائه للإيالة التي استقر فيها حتى يصبح تحت حمايتها⁷.

إن بنود الاتفاقية السالفة الذكر لم تكن تحترم دائما من طرف بعض بايات إيالة تونس أمثال مراد باي وحمودة باي؛ ففكرة انتماء مدينة قسنطينة إلى أراضي الدولة الحفصية أيام اقتسام المغرب الإسلامي ما بين الحفصيين وبنو عبد الواد والمرينيين ثم ضياع الأندلس، وسقوط تلك الدويلات المغربية فيما بعد؛ جعل دايات وبايات إيالة تونس يطمحون دائما إلى استرجاع قسنطينة، الذين كانوا يعتبرونها جزءا من أراضي أسلافهم الحفصيين؛ وبالتالي يحق لهم الحصول عليها بقوة السلاح.

2. الهجوم التونسي على قسنطينة سنة 1700:

افتتح القرن الثامن عشر بهجوم مراد باي حاكم تونس على قسنطينة سنة 1700 وقد تصادف الهجوم مع بداية حكمه، تذكر الكتابات أنه بعث مجموعة من الهدايا إلى أتراك الجزائر فرفضوها فحز ذلك في نفسه فقرر ردّ اعتباره وذلك بجمع قواته للهجوم على قسنطينة. في نفس الوقت كتب إلى خليل باي حاكم إيالة طرابلس، يطلب دعمه، هذا الأخير سار إلى قسنطينة حاملا 25 مدفعا،⁸ كما اتفق مراد باي مع السلطان المغربي مولاي اسماعيل ليهجم من جهته على الغرب الجزائري، وهكذا عقد حلفا ثلاثيا ضدّ إيالة الجزائر بغية تشتيت الجيش الجزائري أثناء الهجوم، ففي شهر جويلية سنة 1700 انطلق مراد باي على رأس جيش ضخم نحو الغرب من أجل احتلال قسنطينة⁹.

انطلق مراد باي بجيشه اتجاه قسنطينة، بغية الانتقام للهجوم على الكاف¹⁰ سنة 1693، فاشتبك الجيشان وكان النصر حليفا للجيش التونسي؛ وذلك يعود إلى العدد الكبير من الجند، بالإضافة إلى الأسلحة الضخمة التي استعملت. شنّ مراد حصارا طويلا على قسنطينة وكتب ذلك المؤرخ روسو Rousseau في حولياته¹¹. كما تحدث المؤرخ الجزائري الحاج احمد المبارك عن مدة الحصار التي قاربت الخمسة أشهر¹²،

وقال: "إن صمود السكان زاد من غضب مراد باي، فرفع الحصار متجها إلى العاصمة من أجل لقاء الجيش الجزائري، وهذا يدلّ أن باي تونس تأكد من الانتصار لأنه تمكن من الدخول إلى الأراضي الجزائرية دون أي خوف يذكر" وعند وصوله إلى مدينة سطيف استقر وجيشه في مكان يدعى "مجاز الأحمر"¹³.

بينما كان القسنطينيون يدافعون على أراضيهم ضد القوات التونسية - الطرابلسية¹⁴، فوجئ الغرب الجزائري في وهران بهجوم من طرف سلطان المغرب المولى إسماعيل¹⁵، وكان الهدف من وراء هذا الهجوم الثنائي المتزامن تشتيت القوات الجزائرية، مستغلا المشاكل الداخلية للإيالة الجزائرية، مثل غضب الجند على الداوي بابا حسان (1699-1700)¹⁶، فاستقال هذا الأخير وجاء من بعده الأغا حاج مصطفى¹⁷ (1700. 1705) وعندما تولّى شؤون الإيالة وجه جيشا كبيرا لتأديب مراد باي¹⁸، ومن نتائج هذه الحرب:

. غنم الجيش الجزائري غنائم كبيرة وتمّ أسر عدد كبير من الجند.

. انهزام الجيش التونسي في معركة جوامع العلمة في 30 أكتوبر 1700¹⁹.

. هروب مراد باي مع من تبقى من الجند²⁰.

أما المؤرخون الأجانب، فلم يذكروا تفاصيل مصير الأسرى، واكتفوا بالتطرق لقيمة الغنائم، وانهزام الجند التونسي، وهروب مراد باي²¹.

إن سياسة مراد باي وسوء سيرته²² أودت بحياته، فبطلب من الباب العالي، قرّر قائد الجيش إبراهيم الشريف قتله، وكان من نتائج ذلك أن استتبّ السّلم بين الإيالتين²³، وكانت نهاية البيت المرادي في تونس بعد اغتيال مراد باي في منطقة أولاد زرقة سنة 1702²⁴.

3. الخلاف بين صالح باي وحمودة باشا:

بعد مرور أكثر من قرن أعاد التاريخ نفسه وتعرض من جديد مدينة قسنطينة لهجوم ثاني، لكن قبل التعرض لتفاضيل الحملة التونسية على المدينة، لا بد من التعريف بحاكمي كلٍّ من إيالة تونس حمودة باي، وصالح باي حاكم بايلك الشرق قسنطينة، ذلك لأنه التعرف على الشخصيتين يقود القارئ إلى التعرف على الأسباب الفعلية للصراع بين الايالتين.

أ. التعريف بصالح باي حاكم قسنطينة 1771 . 1792:

اعتلى إدارة بايلك الشرق؛ صالح بن مصطفى الملقب بصالح باي في سنة 1771²⁵، وهو من أصل تركي، هرب من العدالة العثمانية إلى الجزائر لارتكابه جريمة قتل بالخطأ²⁶، كان لهذا الباي دورا كبيرا في تسيير بايلك قسنطينة والقدرة على إخماد أي تمرد يظهر في البلاد، كقضائه على ثورة أولاد نايل²⁷.

كما عمل جاهدا على قطع دابر قبائل أخرى مثل قبيلة أولاد زياد وقبيلة زمول وكذا قبيلة أولاد عمور وقبيلة الورغة وقبائل الشارن²⁸، وتمكن من وضع حد للخلافات بين الأشياخ في منطقة الزاب، بالإضافة إلى إخضاع بني جلاب؛ بواد ريغ (تقرت) سنة 1789²⁹، بالإضافة إلى مشاركته في نشر الأمن والهدوء داخلها، تمكن أيضا من إبراز دوره الفعال على المستوى الخارجي عن طريق صدّ التحرشات الإسبانية المتكررة على سواحل الجزائر العاصمة، مثل التصدي لحملة الجنرال اوريلي O'reily المعروف بمجماته الناجحة على سواحل المغرب العربي، لكن هذه المرة أخفق، بسبب اتحاد كلٍّ من قوات باي المدينة مصطفى الوزناجي وقوات صالح باي وتم ردّ الهجوم

الاسباني، في 12 من شهر جويلية رجع الجنيرال اوريلي O'reily خائب الأمل حاملا لخسائر بشرية قدرت بأربعة آلاف قتيل³⁰.

ب . حمودة باشا يعتلي كرسي العرش في تونس :

توفي علي باي في 26 ماي 1782³¹ تاركا الحكم لابنه حمودة باشا الذي جدّد له البيعة مباشرة بعد موت والده³² حيث تميزت إيالة تونس بنظام وراثيّ أرسى قواعده حسين ابن علي، الذي سمته المصادر التاريخية بأب الأسرة الحسينية، هذا الأخير الذي توفي تاركا ثلاثة أولاد، وقد تم التطرق للظروف التي حكموا فيها، حيث بعد وفاة محمد باي؛ عمّ حمودة الذي ترك بدوره ولدين لم يبلغا سن الرشد، وبالتالي يصعب عليهما تسيير شؤون الإيالة، فتولى زمام الأمور عمّهما علي باي، ريثما يبلغا سن الرشد، لكن هذا الأخير شيئا فشيئا أشرك ابنه حمودة باشا³³ في شؤون الحكم وأوصى أن يصبح بايا من بعده³⁴، قد نتساءل عن الدوافع التي أدت بعلي باي التصرف بتلك الطريقة؛ هل لأنه أهمل الوصية؟ هل لأن ابنه أقنعه انه الوحيد الذي بإمكانه المحافظة على الملك الحسيني؟ إن الفرضية الثانية هي القريبة من الواقع، لأن حمودة باشا قدّم الكثير لشعبه، اهتم بالجيش حتى قيل عنه أنّه تونس، أي جعل أغلبية جنوده من العنصر المحلي التونسي وبدأ يستغني عن العنصر التركي³⁵، كما تمكن من تقليص التدخل الجزائري في شؤون الإيالة . وبمجرد أن تولّى حكم إيالة تونس دخل في خلافات مع صالح باي قسنطينة وبالتالي تلاشى السلم الذي حافظ عليه والده علي باي طوال مدّة حكمه³⁶.

ج . المناوشات بين حمودة باشا وصالح باي 1783 . 1787:

أسرع الباي حمودة باشا إلى عقد الصلح بينه وبين البندقية³⁷، نظرا للخلافات التي زادت حدتها بين الحكّمين الجزائري والتونسي، ويعود السبب المباشر في

ذلك أن حسان الكبير، والذي كلّفه بالتوجه نحو قبائل الجهة الغربية من تونس، لجمع الضرائب كالعادة، انطلق هذا الأخير على رأس المحالة وأثناء القيام بعملية جمع الأموال، إحدى القبائل قرب جنوب تبسة، ثارت ورفضت السيطرة، والخضوع للحكم التونسي، ففرّت إلى الحدود مستنجدة بحاكم قسنطينة، وكان أنذاك على البايلك، الباي الصالح³⁸، في تلك الآونة لم يهتم الحكم التونسي بشان القبيلة الفارة إلى الجزائر، فتناسى حمودة باشا الأمر نظرا لانهماكه في حلّ مشاكل خارجية.

بعد مرور سنوات قليلة وبالضبط في سنة 1783، أرسل باي قسنطينة مندوب إلى حمودة باشا، يطالبه بدفع تعويضات للقبيلة إياها بسبب ما تسبب فيه حسان الكبير من أضرار. تضمنت الرسالة الموجهة إلى حمودة باشا الطلب بدفع مبلغ تعويضي قدره 40000 سكين³⁹، انبهر باي تونس بالطلب، مما جعله يغضب، فكتب يخبر الداوي محمد بن عثمان⁴⁰، كما حذره بما سيحدث في حالة مساندته لصالح باي، وحسب روسو Rousseau كان حمودة باشا يبحث دائما عن ذريعة تسمح له بإعلان الحرب ضد صالح باي، خصوصا أنه انتهى من مشاكل إيطاليا وعقد الصلح. ليصدر حمودة باشا بعد ذلك أمرا بتحضير الجيش والتهيئة للحرب ضد الجزائر، متخوفا في نفس الوقت من هجوم جزائري مفاجئ.

خرج حمودة باشا نحو منطقة الجريد على رأس جيش ليتفقد الأمور هناك، في افريل سنة 1783⁴¹، وتوجه نحو القبائل في الجهة الغربية من البلاد، من أجل فرض سيطرته على من يحاول الخروج عن طاعته بسبب ما قامت به القبيلة في جنوب تبسة، والتي كانت السبب في توتر العلاقة بينه وباي قسنطينة، دامت تلك الحملة التفتيشية، أربعة أشهر. زادت حدة المناوشات بين الحاكمين مما تسبب في إعادة التوترات السياسية بين الإيالتين وذلك عندما غضب حمودة باشا من التونسيين القاطنين بالحدود الذين قاموا

باستضافة بعض الهاربين الجزائريين عندهم، حتى لا يدفعوا ما عليهم من ضرائب، أو تورطهم في مشاكل مع النظام الجمركي⁴² ذكر روسو Rousseau في هذا الصدد وهو يبدي جليا تحيزه لتونس، عندما يقول أن الوجاق الجزائري، "سرعان ما نسي ما حدث سنة 1783 أثناء ترحيبه بالقبيلة التي فرت من عبء الضرائب ووقوف صالح باي إلى جانبها حيث لم يهدأ له بال، حتى أرغم حمودة باشا من دفع مبلغا ماليا كتعويض لتلك القبيلة"⁴³.

لم يتخاذل الداوي محمد بن عثمان في ردّه على حمودة باشا؛ الذي اشتكى صالح لكنه لم يخف تحيزه لصالح باي، وبالتالي اضطر حمودة باشا الخضوع للأمر الواقع، والامتنال أمام بنود الرسالة وأهم ما نصت عليه، هو دفع تعويض مالي قدره 520000 سكين⁴⁴، في شهر جوان 1784⁴⁵ للقبيلة التي تضررت. ونذكر أن الظروف كانت صعبة في إيالة تونس من جراء الوباء الذي تسبب في خسائر بشرية ومادية ودام تقريبا سنة كاملة⁴⁶، حيث قال عنه المؤرخ التونسي صباغ: لم تعرف الإيالة وباءا بخطورته منذ سنة 1705 وقال حتى استغرب له الملاحظون⁴⁷، وأيضا أسباب أخرى لهذه الخلافات بين الحاكمين؛ كاتهام صالح باي لحمودة باشا بالتماطل وعدم دفع ما عليه من ضرائب سنوية فرضت سنة 1756، حينما ساعد الجيش الجزائري أبناء حسين ابن علي على استرجاع حكمهم، وتحريضه لبعض القبائل التابعة للحكم الجزائري بعدم دفع الأموال لأن في ذلك ظلما⁴⁸، وما يجب الإشارة إليه أنه، في تلك الفترة لجأ إلى الجزائر منافسا لحمودة باشا وهو الأمير حسين باشا الوريث الشرعي لمحمد باي، ويعتبر عمّ حمودة باشا، ومرة أخرى تستغل الجزائر الصراع على الحكم التونسي، فرحبت بالأمير بغية الانتقام من حمودة.

لم يكن حمودة باشا يخشى حكام الجزائر بل تجنباً لتشتيت قواته وخراب بلده لم يكن باستطاعته مواجهة قوتين القوة الجزائرية والقوات الايطالية⁴⁹، فإذا تمّ التركيز قليلاً والتمعن في دراسة الموضوع بطريقة موضوعية وبدون أي تحيز مثل ما فعل معظم المؤرخون، نجد أن أغلب الأسباب المباشرة في ظهور الخلافات بين حمودة باشا وصالح باي، تعود إلى القبائل القاطنة في الحدود والتي تفرّ إلى الجهتين بسبب ارتفاع نسبة الضرائب، أو الخلافات الشخصية بين الحكام ففي كل مرة كان حمودة باشا يشتري السلم من الجزائر و بالخصوص سنة 1787 لأنه كان يخشى دائماً الهجوم الايطالي⁵⁰.

من الجانب الجزائري؛ تم اغتيال الداوي مصطفى باشا في 30 جوان 1805 بعد الفتنة التي عمت العاصمة الجزائرية ومقتل اليهودي بوشناق في 28 جوان⁵¹، كل هذه العوامل جعلت السلطة في الجزائر تغض النظر عن تأخر حمودة باشا في دفع الضرائب المفروضة عليه، فاستغل كل تلك الأوضاع وبدأ يهيئ للهجوم على قسنطينة، وكان ذلك سنة 1807، مع أنه كان بإمكانه الهجوم على المدينة والانتقام من الباي عبد الله، ولو فعل ذلك لكان النصر حليفه لأنّ القوات العسكرية الجزائرية كانت منهمكة في قمع الثورات الداخلية، إلا إن حمودة باشا كانت لديه تصفيات لمشاكل داخلية وخارجية، مثل إبرام السلم النهائي مع فرنسا في 7 أوت 1800، وسبق واختلفت فرنسا مع تونس بسبب حملة نابليون على مصر سنة 1798 فاضطر حمودة باشا أن ينقض السلم بأمر من الباب العالي⁵²، ومنذ مجيئه الحكم يرفض الولاء للجزائر وعدم امتثاله لشروطها، فزاد من غضب باي قسنطينة الجديد عبد الله باي (1804-1806)⁵³، والجيش الجزائري يهيئ للهجوم من اجل تأديب حمودة باشا ظهرت أمور غيرت مجرى التاريخ، وأخلت بالنظام السياسي والاقتصادي لولاية الجزائر منها.

- مقتل اليهودي بوشناق وانجر عن هذا الفوضى وتمت التصفية الكلية لليهود في العاصمة وحرقت بيوتهم وحوانيتهم⁵⁴.

- في 30 جوان اغتيل داي الجزائر.

- واخطر ما يذكر من أحداث زعزعت كيان الدولة ثورة الدرقاوة، التي تزعمها رجل يدعى الشريف بلحرش هذا الأخير الذي رأى أن الوقت مناسب للهجوم على مدينة بجاية بعد أن انتشر صدى الثورة في وهران، وأصبحت هذه الثورة شاملة للقطر الجزائري.

في سنة 1806 تولى حكم البايلك، الباي حسين ابن صالح الذي يعتبر ابن صالح باي وقد تلقى كل الترحاب من طرف سكان قسنطينة متذكرين مآثر والده⁵⁵.

إن أول ما فكر فيه هذا الباي تحقيق رغبات الداي، وذلك انتقاما من حمودة الذي بدا يتخاذل في دفع ما عليه من ضرائب سنوية، بدا الاعتداء الجزائري على تونس بالهجوم على بعض القبائل القاطنة في الحدود والتابعة للسلطة التونسية، وتمت مصادرة املاكهم من إبل وأموال⁵⁶، أما من جهة باي تونس حمودة باشا الذي أوضح غضبه، وقرر وضع حد لهذا الظلم فقد قال المؤرخ ابن أبي الضياف في هذا الصدد "لما أحس من قوته القدرة على دفع الضيم، صار يتعلل على أهل الجزائر، وأخذ في إزالة ما اعتدوه من التعدي، الذي منه إن صاحب الجزائر أوقسنطينة يشتري الأنعام ويبيعها إلى البيع بتونس بثمان يلوح بالإشارة إليه"⁵⁷، هذا النوع من التبادل التجاري كان له اثر سلبي، لان الأنعام الآتية من قسنطينة يجب أن تباع قبل أنعام سكان تونس. وقال أيضا المؤرخ السالف الذكر أن التاجر القسنطيني عندما كانت تموت أنعامه وهو في طريقه إلى تونس يدعي انه تم الإعتداء عليه وسرقت أنعامه وبالتالي يطلب التعويض من السلطة التونسية⁵⁸.

وبالإضافة إلى السبب التجاري الذي جعل حمودة باشا يقرر محاربة قسنطينة وجد سببا آخر أو مباشرة يتمثل فيما يلي : أنه عندما كان ينزل بالفنادق التونسية شخصيات سياسية أو عسكرية يستغلون سلطتهم و يعاملون البسطاء من التونسيين سوء معاملة، فكان حمودة الباي يعلم بكل ما يحدث من ظلم، فكلما تقدم مظلوما يشتكي لرفع الظلم أحاب الباي بما يلي: لم أجد من أتخزم بهمتكم على دفع هذا الضيم⁵⁹، تعمد حمودة باشا في ترديد هذه العبارة حتى توغرت صدور التونسيين ، وازداد بغضهم للجزائريين.

من خلال تلك العبارة نفهم ان حمودة باشا كان يرغب في الانتقام من الجزائريين الذين بلغوا الذروة في الحط من قيمة التونسيين وخير مثال يدل على ذلك هو ما جاء به المؤرخ دورنو" ممثل الداوي الجزائري في تونس الذي سمح لنفسه بالإساءة للرعية، كما تمتع بكل الصلاحيات دون أن يتدخل حمودة باشا في شؤونه مع انه كان يعلم بظلمه"⁶⁰.

وفي رواية أخرى تبين الظلم الجزائري للتونسيين ومع ذلك تحمل حمودة باشا وقد جاء فيها "أرسل احد رجال الدولة الجزائريين في مهمة إلى تونس، وعند وصوله أمر حمودة باستقباله أحسن استقبال، وبعد إنهائه للغذاء ألقى بالأواني التي أكل فيها من النافذة (صحون وكؤوس من الفضة والذهب)، عندما علم الباي بما حدث أمر بقتله ،لكن بعد ذلك تراجع لأنه أدرك خطورة الموقف وما سينجر عن ذلك⁶¹. ومن خلال كل ما ذكر أصبح من حق حمودة الهجوم على قسنطينة ووضع حدّ للتجاوزات الصادرة من السلطة الجزائرية. كما حدث أن حمودة استغل الظروف الجزائرية بعد عزل الباي السابق لقسنطينة، مصطفى إنقلز باي، وهذا ما اغضب السلطة الجزائرية وأصبحت العلاقات متوترة للغاية.

وهنالك سبب آخر جعل المناوشات تتزايد، الرسالة التي بعث بها الباي القسنطيني يرفع فيها من ثمن الأنعام وحتى أسلوب الكتابة مختلف عن الرسائل السابقة حسب ما جاء عند المؤرخ ابن أبي الضياف⁶². ومن أجل هذا الأمر اجتمع حمودة باشا برجال الدولة للنظر في الأمر، فكانت النتيجة إعلان الحرب على الجزائر واحتلال قسنطينة.

4. الهجوم على قسنطينة في جانفي 1807:

أ. المرحلة الاولى : كلف حمودة باشا قائد الجيش سليمان كاهية الملقب بالكبير باحتلال قسنطينة توجه القائد على رأس جيش كبير كما تم تدعيمه بعدد كبير من القبائل العربية، حيث بلغ عدد الجنود خمسون ألف حسب المؤرخ ارنست Ernest، وذكر المؤرخ روسو Rousseau أربعون ألف⁶⁴، أما العنتري فقد ذكر " قدم جيش غزير من بلد تونس إلى قسنطينة يقرب عدده لعشرين ألف مقاتل بالات حربية من أسلحة ومهارس وغير ذلك من الخزائن الحربية التي توجهوا بها بقصد الاستيلاء على قسنطينة طمعا فيها لما بلغهم عنها إذ ذاك من الشر و الهول الذي أحاط بها " ⁶⁵، و من خلال ما ذكره العنتري يتضح لنا أن حمودة باشا استغل الظروف الصعبة التي كانت تمر بها قسنطينة وحاصرها، وقد ذكر المؤرخ ان الهجوم كان في آخر سنة 1806 وان المعسكر التونسي حط رحيله في مكان يدعى "كدية عاتي"⁶⁶. كما بين المؤرخ نفسه، أن السبب المباشر لهذا الهجوم هو رغبة وتوسع حمودة باشا وضم الجبهة الشرقية من الجزائر إلى تونس، ولو رجعنا إلى الوراء نجد أن هناك من سبقه، والمقصود هجوم مراد باي على قسنطينة سنة 1700، فالتاريخ أعاد نفسه بعد مرور قرن من الزمن.

إن الظروف الجوية التي صادفت الهجوم كانت قاسية جدا، حيث برودة الطقس مما جعل العديد من الجند يتراجع، مما أدى بقائد الجيش التونسي أن يصبر حتى تستوي الأمور ويتلطف الجو، وبالتالي ترتفع معنويات الجند.

وبدأ باي قسنطينة حسين ابن صالح من جهة يجهز للحرب والدفاع عن بلده، حيث هيا جيشا ضخما بالإضافة إلى الدعم العسكري الذي بعث به الداى، وقد قارب هذا الأخير ثلاثة آلاف رجل بالإضافة إلى سبعة آلاف ضابط انكشاري وزواوي وعدد كبير من الفرسان العرب وهذا ما جعله يتأكد من النصر⁶⁷، قد نتساءل لماذا تأكد من النصر؟ لأنه إذا قارنا بين الجيشين نستنتج أن النصر يكون حليف التونسيين.

ب- المرحلة الثانية: عندما تحسنت أحوال الطقس قرر سليمان كاهية قائد الجيش التونسي مواصلة طريقه، وبعد 15 يوما من المشي وصل الجيش إلى قسنطينة بدون أية معارضة تذكر، في 3 ابريل وقع الهجوم المباشر بعبور واد البراريت، وذكر المؤرخ الحاج احمد المبارك أن هذه المرحلة من الحرب كانت لصالح التونسيين حيث تم اسر ثلاثمائة شخص⁶⁸، أما الباى حسين ابن صالح فقد نجح بنفسه وتوجه إلى سطيف بقصر التير⁶⁹، وصف هذه المرحلة من الحرب المؤرخ ابن أبي الضياف فقال "لما وصلوا قسنطينة، عاثوا في نهب عربانها، واخذوا بمخانق حصرها، والحوأ عليها بالمدفع والبونبة حتى اشرفوا على أخذها"⁷⁰.

• مقاومة سكان قسنطينة:

بعد أن هرب باي قسنطينة إلى قصر التير، أسرع السكان إلى غلق أبواب المدينة، بقي الجيش التونسي محاصرا للمدينة مدة شهر⁷¹، ويذكر أن سليمان كاهية كان يأمر بإلقاء كل ليلة أكثر من مائة قذيفة غضبا من عدم التمكن من الدخول ومن

اقتحام أسوار المدينة، رغم المدة الطويلة للحصار إلا أن سكان قسنطينة صمدوا، بالإضافة إلى حسن حظهم فقد سقطت أمطار غزيرة زودتهم بالمياه الصالحة للشرب⁷²، طلب سليمان كاهية المساعدة العسكرية من حمودة باشا لأنه فوجئ بقوة و صمود القسنطينيين، كما انه تأكد من مجيئ الإمدادات العسكرية من العاصمة.

استجاب باي تونس لطلب سليمان كاهية فبعث له بالمساعدة العسكرية وجعل عليها قائدا الباي القسنطيني السابق مصطفى انقلز، وعند وصول هذا الأخير بدأت الخلافات بينه وسليمان كاهية وذلك من أجل، من سيعود له الاعتبار بعد الانتصار واحتلال قسنطينة؟ فقد سبق الأحداث الباي انقلز وأعلن نفسه بايا على تونس.

رغم قوة الجيش التونسي، فلم تتطور الأمور، بل تفهقرت وقد يعود السبب الرئيسي الى عدم تواجد الثقة بين القائدين فكل واحد يزعم انه القائد الأعلى للجيش، وسوف نرى أن هذه المناوشات كانت من الأسباب المباشرة التي رمت بالتهلكة الجيش التونسي بالإضافة إلى عوامل أخرى دعمت الموقف نحو السوء، مثل فرار بعض القبائل من صفوف الجيش كقبيلة الدريد، بسبب خلافات وقعت داخل صفوف الجنود.

• انهزام الجيش التونسي في ماي 1807:

وصلت إلى قسنطينة إمدادات عسكرية هائلة من الجزائر العاصمة بقيادة احمد اغا، هذا الاخير الذي أمر بالاستقرار بواد الرمل، كما جاءت قوات أخرى مساعدة من عناية بها خمسمائة مقاتل⁷³، وربما هذا ما سيضمن النجاح للجيش الجزائري، أسرع سليمان كاهية بالهجوم والتقى الجيشان ووقعت معركة واد الرمل لكنه لم يصب عندما ظن انه بهذا الهجوم المفاجئ سوف ينتصر، بل عمل على تشتيت قواته وأدى إلى فرار العديد من صفوف الحرب، وانتهت الحرب التي لم تبدأ في الحقيقة وذلك

بتخلي سليمان وانقلز عن إدارة الجيش بعد أن اختلفا عن الزعامة، فانهزم التونسيون بعد أن فوجئوا بالهجوم الجزائري في معسكرهم في ماي 1807⁷⁴، وجاء عند مؤرخين آخرين إن الهزيمة كانت في 3 ماي كما ذكروا أنها كانت مدبرة⁷⁵.

. أسباب الانهزام:

بالرغم من قوة الجيش التونسي، ومحاصرته لمدينة قسنطينة لمدة طويلة إلا أن الانتصار لم يكن حليفه وذلك لأسباب عديدة نذكرها باختصار:-
 - طول مدة الحصار دون التمكن من اقتحام المدينة، مما جعل انتشار الملل والتعب في اوساط الجيش التونسي، بالاضافة الى قساوة الطبيعة .
 - الصراع الدائم بين سليمان كاهية والباي القسنطيني السابق من اجل قيادة الجيش.

- تراجع بعض القبائل التي تم الاعتماد عليها، وفرارها من ميدان القتال حيث عندما ذكر ابن ابي الضياف إن الهزيمة التونسية كانت مدبرة، ربما كان يقصد الضغط الجزائري على تلك القبائل.

- وصول المساعدة العسكرية الى قسنطينة من جهتين أولا من الجزائر وثانيا من عنابة وهذا ما لم يكن في الحسبان، وبالتالي حوصر الجيش التونسي، وقد ذكر في هذا الصدد العنتري "....من غريب الاتفاق ان النصرتين وصلتا لقسنطينة في ساعة واحدة، ويوم واحد لم تتخلف أحدهما عن الأخرى، وكأنهما قدما معا على طريق واحدة والتقتا على العدو..."⁷⁶.

بعد الهزيمة الشنعاء التي تلقاها التونسيين، حمل حمودة باشا سليمان كاهية مسؤولية الخسارة فعاقبه وأقاله من منصبه، كما انجرت خسائر مادية تمثلت في تخلي الجيش التونسي عن كل المدافع والمؤن الحربية في عين المكان وكذا الخيل والأغنام.

كما تم اسر عدد كبير التونسيين وحسب الحاج محمد المبارك أن الأغا بعث بهم إلى الداى للنظر في أمرهم، وان هذا الأخير أذن لهم بالرجوع إلى وطنهم، لكن المؤرخ ابن أبي الضياف والذي عاصر الأحداث لم يتحدث عن موضوع الأسرى، أما عن الكتابات الأجنبية فقد وجد فيها أن الأغا أمر بإعدام جميع الأسرى، وان رؤوسهم بترت حيث بلغ عددها الستمائة، لكن هناك مبالغة، صحيح إنها الحرب ولا بد من خسائر بشرية من الطرفين، لكن ليس بالصفة المذكورة، عموماً خلال بحثنا اتضح جليا انحياز المؤرخون الأجانب وخاصة منهم الفرنسيون إلى الجانب التونسي.

إن أهم ما نتج عن الحرب ولادة الشعور القومي لدى التونسيين الذين قرروا التجنيد في الجيش والكف من الاعتماد عن الجند الذين يأتون من تركيا (الجيش الانكشاري)، حتى أن البوادر الأولى للشعور القومي تجلى سنة 1794، وذلك عندما عمل حمودة باشا بنصيحة وزيره صاحب الطبع، وقام بتعزيز الحدود بحراس من أصل تونسي، كما اتحدت القبائل التونسية وقررت التجنيد في الجيش التونسي، بالإضافة إلى تعهدها بعدم التراجع في حالة الحرب، ووضع حد للسيطرة الجزائرية⁷⁷، من جهة الباى القسنطيني السابق انقلز وابنه، انقلبت عليهما الأوضاع وحملهما حمودة باشا مسؤولية الانهزام حيث أمر بطردهما، ذكر المؤرخ إرنست في هذا الصدد أن علي ابن انقلز قد انتحر لأنه فقد الأمل ومن المحال يرجع إلى قسنطينة⁷⁸.

5. رد فعل الجيش الجزائري في جويلية 1807:

بأمر من الداى احمد (1805-1808) قرر الجيش الجزائري رد الضربة لحمودة باشا الذي جراً وهجم على قسنطينة، فأسرع بتعدي الحدود واقتحم مدينة الكاف، واستقر على ضفاف واد سرات، لكن حمودة تعلم الكثير من حروبه مع الجزائر، فأدرك أن خصمه في طريقه إلى تونس، فأمر بحراسة الحدود⁷⁹.

فوجئ الجيش الجزائري بنظيره الذي بلغ ثمانية آلاف جندي⁸⁰، وذكر ارنست اثني عشر ألف⁸¹، استمر القتال إلى أن تخلت قبيلة من القبائل عن المعركة وهي في الذروة، لكن هذه المرة قبيلة فرجيوه التي كانت تقاتل إلى جانب الجزائريين و الحدير بالذكر أن زعيم القبيلة ابن عاشور أمر رجاله بالانضمام إلى الجبهة التونسية، بسبب عبارات مزعجة صدرت من الباي حسين ابن صالح مست بكرامته⁸².

- ومن هنا نستنتج أن الحرب كانت لصالح التونسيين، ومن أحداثها:

- تراجع الجند الجزائري من ساحة القتال، و ربما يرجع السبب إلى الإرهاق الذي أصابهم ، خاصة أنهم شاركوا في حربين متتاليتين.

- النزاعات التي ظهرت بين زعماء القبائل مثل ابن عاشور والباي حسين ابن صالح.

- من النتائج الخطيرة لهذه الحرب هو فرار الباي القسنطيني نفسه، وتخليه عن الجند حيث قال في هذا المؤرخ العنترى " لم يشاهد القتال الواقع فيها إلا يوما واحدا ثم فر" وذكر أيضا⁸³.

"لأجل تفریطه وقلة شجاعته في تلك المعركة صدر الأمر بعد ذلك بقتله فقتل"⁸⁴ وقد قتل خنقا. وهرب ابن عاشور إلى جبال البابور.

- استمرت الفئة القليلة من الجند في القتال بزعامة الاغا، لكن بدون جدوى عدد الجند التونسي كان يفوق بكثير الجند الجزائري ، فأصبح من الصعب القتال فبات الحل الوحيد هوا لفرار، والتخلي عن كل الوسائل الحربية ، جاء عند مؤرخ إن هذا الانهزام أمام الجيش التونسي يعود إلى خيانة وقعت من طرف قيادة الجيش الجزائري، لكن هذا زاد من حزم الداوي وعزم على إعادة الكرة والهجوم على تونس من جديد، التقى الجيشان في 13 جوان 1808⁸⁵ بالقرب من واد سرات لكن المعركة انتهت قبل بدايتها وذلك لكثرة عدد الجيش التونسي، فعاد الجزائريون من حيث أتوا⁸⁶، وعقد

الصلح في شهر نوفمبر 1808، فقد جاء هذا الأخير في وقته لان زعماء الحركة الدرقاوية ثاروا من جديد، كما استغل سلطان الغرب المولى إسماعيل هذه الظروف المزرية فغزا كل منطقة فجيح وكورارة وتوات وبهذا انتزع من الأتراك مناطق الجنوب الشرقي لوهرا⁸⁷.

إن صلح سنة 1808 لم يكن مرضيا ولا مقنعا لداي الجزائر فحاول نقده مستعملا شتى الوسائل واخيرا أمر بتجهيز حملة بحرية و الهجوم على تونس، احتوى الأسطول المهاجم على أربعة عشر مركبا حريبا وجعله تحت قيادة الرئيس حميدو⁸⁸، هذا الأخير استولى على سفينة أمير البحر التونسي احمد المورالي التي كانت تحتوي على ثمان وثلاثين مدفعا وكان ذلك في شهر ماي 1811.

ظل النصر حليف الجيش الجزائري إلى غاية الاستيلاء على خليج حلق الوادي، لكن تدخل الباب العالي هدا من الأوضاع التي آلت إليه العلاقات بين الايالتين، هذا الاعتداء الأخير جعل السلطة التونسية تزيد في عنادها ورفضت تسديد الضرائب، مما جعل أيضا داي الجزائر يأمر بتجنيد جيش و الهجوم في شهر جويلية 1812، وأثناء وصوله إلى حلق الوادي بدا التعب يدب في أوساطه، بالإضافة إلى قوة الجيش التونسي بزعامة القائد يوسف صاحب الطابع، مما جعل الأسطول الجزائري ينسحب، كما انتشرت الفوضى والاضطراب، لاحقت القوات التونسية المراكب الجزائرية إلى غاية قسنطينة وأوشكت أن تحتلها لولا المقاومة الصامدة لسكان قسنطينة بزعامة الباي محمد النعمان. واستمر النزاع بين الايالتين حتى توسطت حكومة استانبول في رفع الخلاف سنة 1817، لكن ليس بصفة نهائية.

6. موجات الطاعون في قسنطينة:

ظل الطاعون يجتاح بايلك قسنطينة في فترات عديدة طيلة القرن الثامن عشر⁸⁹. نذكر طاعون 1741 الذي ظهر في غرب الجزائر في منطقة مستغانم وانتقل إلى شرق الإيالة، فظهر بقسنطينة في 26 مارس بواسطة أشخاص توافدوا بين المنطقتين، ثم توقف في ديسمبر من نفس السنة⁹⁰، ثم ظهر مرة أخرى سنة 1754 في البايك وامتد إلى القل في 1758⁹¹، لكن هذه الموجات من الطاعون السابقة لا تقاس في الخطورة أمام التي ظهرت سنتي 1786 و1793، فالأول عرف لدى الجزائريين بـ: "الوباء الكبير"⁹²، وكان أول ظهور له في 1783 في القالة وشهد على ذلك القسيس لابي بوارى L'Abbé Poiret الذي تصادف قدومه إلى المنطقة مع انتشار الوباء، وقال: "الطاعون يحصد الأرواح منذ أكثر من سنتين"⁹³، ولم يتوقف إلا في 1788⁹⁴، وانتشر إلى منطقة عنابة حتى أصبح يموت يوميا من خمسة إلى ستة أشخاص. ازدادت خطورة الوباء وزادت معه بسرعة فائقة عدد الإصابات القاتلة تراوحت بين أربعين وخمسين شخصا يموتون يوميا⁹⁵. أما في القالة فقد بلغ الوباء الذروة حيث كان يتوفى في الأسبوع الواحد ما لا يقل عن 8000 شخص⁹⁶، انتشر الوباء إلى تونس وبنزرت وطبرقة أين حصد 150000 شخصا خلال شهر ونصف فقط⁹⁷.

أما بالنسبة لوباء عام 1793 فقد بدأ ظهوره في مدينة الجزائر بعدما نقله إليها بحارة جاؤوا من اسطنبول، وقد تم حصره فيها لمدة لكن بدون جدوى امتد إلى مناطق أخرى من جملتها بايلك قسنطينة⁹⁸، فقد تفشى الطاعون في المنطقة، وأصبح يموت فيها من ثمانين إلى مائة شخص يوميا واستمر الوباء إلى غاية 1798، ومس عدة جهات من الوطن ولاسيما وهران⁹⁹. لم يقف الحكام مكتوفي الأيدي أمام هذا المرض الخطير بل اتخذوا بعض الإجراءات الصارمة بغية التخفيف من عدد الضحايا

والوقوف في وجه انتشاره، في 26 مارس من سنة 1785 قام صالح باي حاكم قسنطينة بإرسال فرسان الدايرة¹⁰⁰ إلى المناطق المصابة بهدف منع الاتصال بالقبائل التي لم يلحقها المرض، وكان غرضه من هذه العملية الحفاظ على باقي البايك من انتقال العدوى إليه.

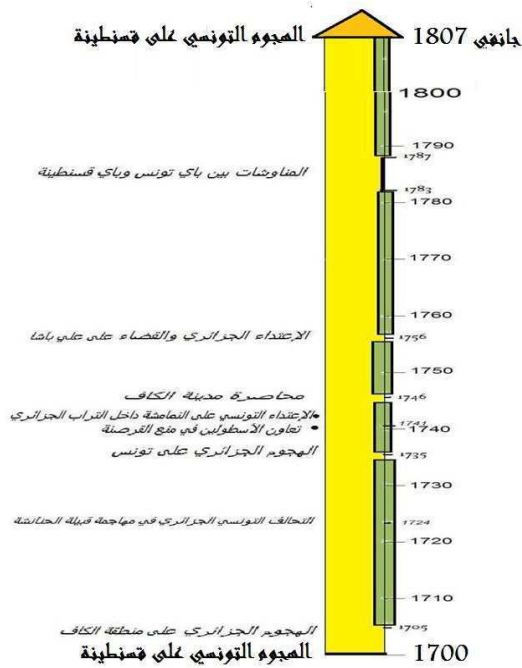
أما في الموانئ الجزائرية فكان يطبق فيها ما يسمى بنظام الحجز الصحي: عبارة عن مكان صحي يعزل فيه كل وافد أجنبي سواء كان مريضا أو يشك في إصابته لمدة أربعين يوما ثم يؤذن له بالدخول إلى البلاد¹⁰¹. وقد اختلفت مدة الحجز الصحي حسب الظروف، ذكر لنا ككفتسوف أنه خضع لهذا الإجراء حين وصوله إلى ميناء عنابة، وذكر أنه لم يمكث أكثر من 24 ساعة في مكان الحجز الصحي¹⁰².

خاتمة:

لعل ما جاء في هذا البحث ما هو إلا دراسة مختصرة لأنه لا يمكن التجميع والإحاطة بكل جوانب الموضوع وذلك لوجود جزئيات كثيرة، لكن هذه المحاولة جعلتنا نخرج على أهم الأحداث التي تجعل القارئ يلتبس أن الصراع بين دولتين متجاورتين مرتبط في غالب الأحيان بما يلي:

1. حاضر الشعوب أسير ماضيها " يقصد بانتماء قسنطينة للدولة الحفصية".
2. غطرتة الحكام وحب التسلط.
3. الصراعات الشخصية والخلافات بين الحكام سببا كافيا في نشوب الحرب.
4. دور قبائل الحدود في إشعال نار الفتنة في غالب الأحيان.
5. الاتفاقيات المبرمة نادرا ما تكون لصالح الطرفين معا .
6. مثلما كان الموقع الجغرافي لمدينة قسنطينة يجعلها تمتاز بأهمية كبيرة، فرض عليها أن تكون أول من تعاني من ضربات الأوبئة الآتية من الشرق.

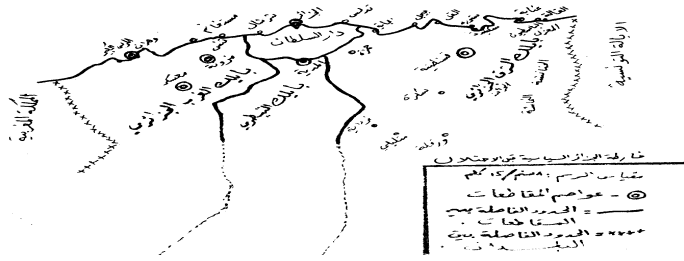
وفي ختام هذا البحث، وحتى لا يُنعت أنه غُلبت عليه الذاتية، نشير أن خلال الفترة المدروسة سجلت هجومات الجيش الجزائري لمدينة الكاف التونسية. وهذا محفز يمكن ويجعل الدارسين في المستقبل من مواصلة الطريق والبحث إلى ما آلت إليه العلاقات بين الإيالتين، فالفترة المدروسة واللاحقة حافظتين بالأحداث، فلولا تقييدنا بشروط النشر لأضفنا الكثير.



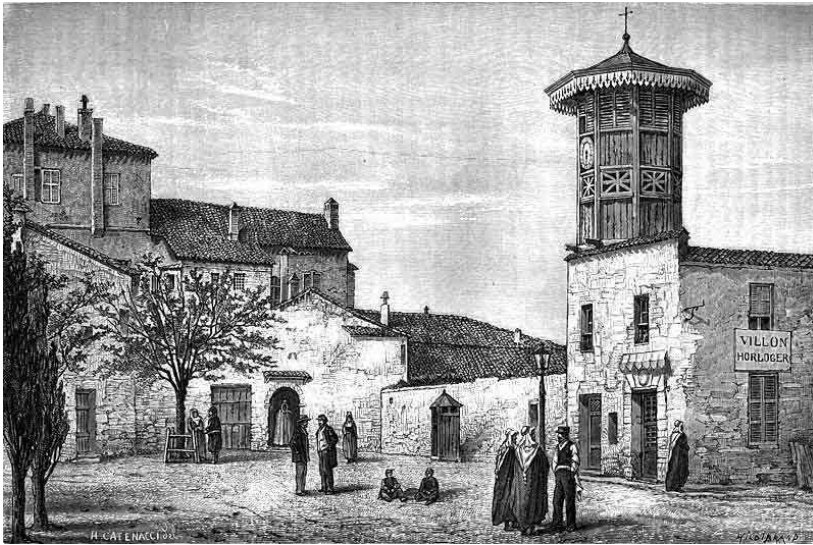
الملحق رقم 1 . سلم زمني يمثل أهم الأحداث التاريخية بين إيالتي الجزائر

وتونس.

مقياس الرسم : 10 سنوات = 2 سم



الملحق رقم 2: خارطة الجزائر السياسية قبل الاحتلال الفرنسي، ينظر: محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين (1792-1830)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط، 1984، ص 291 .



الملحق رقم 3: الواجهة الأمامية لقصر قسنطينة، ينظر

M. Charles De Féraud, Visite au palais de Constantine, librairie hachette et cie, Paris, 1877 ,P.2.

الهوامش:

1 . Ch. Monchicourt, La frontière Algero -Tunisienne dans le tell et dans le Steppe, tome LXXXII, 1938, P. 31.

2 Louis Frank et J.J Marcel, Histoire de Tunis, Ed. Bouslama, Tunis, 2ème édition, 1979., p. 22
3 . Mercier Ernest, Histoire de Constantine, J. Marle et F. Biron, Imprimeurs -Editeurs, Constantine, 1903 .p.227

4 . القبائل التي كانت تقطن المناطق الحدودية مثل بني شنوف المتحالفة مع بني صاولة والتي تمتعت بمكانة في قسنطينة وأولاد سعيد قبائل تونسية والأحرار أسياد الحنانشة المنتشرة في غابات قلعة سنان

شرق تبسة . ينظر: Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. Cit P227. 5 .
228 Ibid., p.

6 . ع لجية عيش، دور ومكانة صالح باي في تاريخ قسنطينة وعلاقته مع بايات تونس، سيدي،

عيسى، مجلة ثقافية ، فكرية ، اجتماعية، موقع WWW Sidi Aissa Com تاريخ الدخول 5
مارس 2013.

7 Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. Cit., p. 228

8 . صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي (1514. 1830)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ،
2014 ، الجزائر، ص 148.

Henri Garrot, Op. Cit., p. 5549 .

10 . تقع مدينة الكاف في الشّمال الغربي من تونس. موقعها حصين بطبيعته الجغرافيّة إذ تنتصب على السّدير) تشرف المدينة على آفاق فسيحة الأرجاء منها سهول السّرس وزنفور و الأربص " . ذكرت مدينة الكاف في عدّة مصادر أدبيّة و تاريخيّة فقد أوردها الجغرافي اليوناني بطليموس القرن الأوّل بعد المسيح كما وجدت في دليل أنطونيوس وهي خريطة للطّرق الرومانيّة تنسب إلى الإمبراطور Théodosse كما ذكرها المؤرّخ اليوناني Salluste عاش في القرن الأوّل قبل الميلاد حملت مدينة الكاف عبر التّاريخ عدّة أسماء منها سقّة "Sicca" كما أورد المؤرّخ اليوناني Polybe وصارت في العهد الرّوماني تلقّب Veneria ثم "سيرتا" الجديدة Cirta nova و ذكرها " البكريّ " بإسم " شق بنارية "

(عاش في القرن الخامس للهجرة). تزخر المدينة حاليًا بعدة معالم أثرية هامة نورد على سبيل الذكر المسجد الكبير (البازليك) والقصبة و الكنيسة والحمامات الرومانية وعدد كبير من التّوابيا. مدينة الكاف من المدن المحصنة في الإيالة تحتوي على أربعة أبواب بداخلها طرق متشابكة يعضها البعض بما انحدر سلاسل جبلية سميت بجبال الكاف في

العهد الفينيقي سيكافينيريا *Sicaveneria* ويقصد بالكلمة الصخرة ينظر: *Alphonse Dilhan Histoire abrégée de la Régence de Tunis, Imprimerie Balitout Questroy et Cie, Paris, 1866, p. 201*

11. قال أن مراد باي لن يتراجع قط عن فكرة الهجوم و الانتقام من الجزائر حيث ضلت قسنطينة محاصرة و محرومة من كل المعونات الخارجية لمدة ثلاثة أشهر، لكن سكانها صمدوا، ولم يتمكن الجيش التونسي من تجاوز أسوار المدينة، فبعث مراد قائد الجيش إبراهيم الشريف إلى تركيا من أجل الحصول على الدعم العسكري من الباب العالي. ينظر:

Alfonse Rousseau, Op. Cit., p. 85

12. خلال ساعة واحدة تم القضاء على الجيش التونسي، وإذ يبدو في العبارة السالفة الذكر شيء من المبالغة فليس من المستبعد أن يكون قد تم فعلا تعبئة كلّ الجند بعد مجيء الداوي حاج مصطفى،

ضف إلى ذلك غيرة الجزائريين على بلدهم ورغبتهم في طرد العدو. ينظر: *Hadj Ahmed El. Moubarek, Kitab tarikh quasantina, in R.A., 1913, n° 57, p. 276-277*

Vayssette, Histoire des Beys de Constantine, p. 274.13 .

14. محمد صالح بن العنزي، فريدة منسية في حال دخول الأتراك بلد قسنطينة، (تاريخ قسنطينة)،

مراجعة وتقديم وتعليق يحي بو عزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، ص 51

15. *Guelouz, Masmoudi, Smida, Histoire de la Tunisie, les Temps Modernes, Centre Industriel du Livre, 1^{ère} édition, 1983, Tunis, p.53.*

16. اعتمد مراد باي في هجومه على قسنطينة على جند من الجيش الطرابلسي، ينظر: حسن

حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، مختصر يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم

العصور إلى الزمان الحاضر، الدار التونسية للنشر، 1968، ص 175 .

17. رتبة عسكرية. ينظر: منصف فخفاخ، موجز الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشييف الوطني التونسي،

تقديم عبد الجليل التميمي، منشورات الأرشييف الوطني التونسي، تونس، 1980، ص71

18 . *El Hadj Ahmed El Moubarek*, , *Op. Cit*, p. 277

19 . *Ernest Mercier*, *Histoire de Constantine*, *Op. Cit.*, p. 240.

. غنم الجيش الجزائري غنائم كبيرة و أسر عدد كبير من الجنود. ينظر: محمد صالح بن العنتري، مصدر

20 سابق، ص 51

21 . *Henri Garrot*, *Op. cit*, p. 554, *Alfonse Rousseau*, *Op. cit.*, p. 86-87

22 حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 175.

23 المرجع نفسه، ص 175.

24 . *Smida Guelouze, Mesmoudi*, *Histoire de la Tunisie*, p. 53, *Henri Garrot*, *Op. cit.*, p. 555.

25 . *Vayssette*, *Op. cit.*, p. 81.

26 ولد صالح باي في مدينة أزمير بتركيا سنة 1137هـ / 1739، من أب تركي يدعى مصطفى، ينتمي إلى أسرة متوسطة الحال، وعاش سنواته الأولى بصفة عادية إلى أن ناهز السن السادسة عشرة، وكان ذلك عام 1755، تسبب في مقتل أحد أقربائه، فاضطرته الظروف أن يهجر موطنه، ويلتحق بالجزائر حتى يتفادى العقاب، وقد عمل صالح باي في أول عهده بالجزائر في مقهى الأوجاق يساعد صاحب المقهى، ولعله اضطر إلى هذا العمل نظرا لصغر سنه، وعدم خبرته بالحياة وجهله بأوضاع البلاد، وعلى كلّ فإن عمل كهذا رغم تواضعه إلا أنه سمح له بأن يتعرف على واقع الجزائر، ويتطلع على طبيعة الحكم، وأسلوب الإدارة السائد بالجزائر آنذاك فضلا عن أن هذا العمل كان سببا في تعرفه على بعض رجالات الأوجاق الذين لم ييخولوا بمساندته فيما بعد للحصول على إذن من مجلس الديوان يسمح له بالانخراط في فرقة الأوجاق، والالتحاق بعد ذلك بمحلة الشرق السنوية المتوجهة إلى قسنطينة، قصد المساهمة في تعزيز الحامية التركية بها، والمشاركة في جمع الضرائب من

الأرياف. ينظر: . : *Ernest Mercier*, *Histoire de Constantine*, *Op. cit.*, p. 271.

27. قبيلة كانت تقطن بين بوسعادة والجلفة والتي كانت من فترة إلى أخرى تزعم السلطة و ترفض امتثالها لأمر الباي ودفع ما عليها من ضرائب. لكنّ في أكتوبر 1773 قطعت شوكة هذه القبيلة وتمّت مصادرة كل أموال أشياخها. ينظر: المرجع السابق ص 271

28 . *Berbrugger*, *Des frontières de l'Algérie*, in *R.A.*, 1860, p. 407.

29 . *Ferraud*, *Les Benjellab sultane de Touggourt*, in *R.A.*, 1881, p. 121 et suivantes.

30. *Rozet et Carette, Op. cit., p. 252. et Achille Fillias, L'Algérie ancienne et moderne, 2^{me} édition, Alger, 1875, p. 37 and Felix Geronimo Buch, Expédition du Conte Oreilly contre Alger, in R A, n° 9, année, 1865 pp. 39-43.*

31. عندما تقدم علي باي في السن أشرك إبنه حمودة في الحكم وراسل الدولة العثمانية طالبا موافقتها على تقديم إبنه الولاية من بعده فأسعفته بمرغوبه ووافقته بالخلة والفرمان وتوفي علي باي بعد ذلك بقليل سنة 1783. ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 187.

32 - *Maggill M. Thomas, Op. cit., p. 30.*

33. حمودة باشا هو الابن البكر لعلي باي كان يكنى أبا أحمد ولد حوالي 1752 كان له أخوين وأخت، اعتلى كرسي العرش الحسيني سنة 1782 وصف باللياقة البدنية والصرامة في إصدار الأحكام، أحسن قراءة وكتابة اللغتين العربية و التركية، عرف بحكمته، قيل أنه سبّ الإيالة بيد من حديد، ابتعد عن كل ما يخل بأمن الدولة، أولى الجيش أهمية فائقة أكثر فيه من العنصر العربي و البربري واستبعد الجند الأتراك الذين كان لا يثق بهم. ينظر: محمد الهادي الشريف، ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس، شراس للنشر، ط2، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، 1985، ص ص 87-93 و أيضا: حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 187.

34- *Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. cit., p. 277, and M. Thomas Maggill, Op. cit., p. 24.*

35. امام رشاد، سياسة حمودة باشا الحسيني في تونس (1782-1814)، المجلة التاريخية المغربية، رقم 675، ص 111.

36. *Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. cit., p. 277.*

37 البندقية مرفأ كبير بشمال إيطاليا تسمى اليوم فينسية، كانت بها جمهورية مستقلة ذات سلطة وتجارة بحرية عظيمة. ينظر حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 188.

38. *Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. cit., p. 277, and Plantet, Tunis, Tome 3, Op. cit., p. 134.*

39. *Pechot, Tome 3, Op. cit., p. 110.*

40. توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766. 1791)، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص65.

41. *Alfonse Rousseau, Op. cit., p. 217.*

42. *Ibid., p. 222.*

43. *Ibid., p. 57.*

44. السكين أو السوكان عملة فينيسية تساوي 2بيستر و 6 ريال. ينظر : *Laugier De Tassy, Histoire du Royaume D' Alger un diplomate français à Alger en 1724, Ed. Loysel, Normandie, p. 150.*

45. *E. Plantet, Tunis, tome 3, Op. cit., p. 138.*

46- *Paul Sebag, La peste en Tunisie, in ibla, n° 109, 1^{er} trimestre, 1965, p. 41.*

47. *Ibid., p. 41.*

48. *A. Rousseau, Op. cit., p. 223.*

49 - الحرب مع البندقية وكان سببها أن تجارا تونسيين اكتروا سفينة من بحارة البندقية في سبيل حمل بضائعهم من الإسكندرية إلى صفاقص وفي طريقهم عرّج بهم المركب إلى جزيرة مالطا وعند نزولهم قبض عليهم وسجنوا بتهمة حملهم لوباء الطاعون ثم حرقت كل بضائعهم وبعد إطلاق سراحهم رفعوا أمرهم إلى حمودة باشا ، فطلب من نائب جمهورية البندقية تغريم ما ضاع للتجار وفق القانون التجاري لكن بعد رفض هذا الأخير أعلن حمودة باشا الحرب سنة 1785 وجهز المراكب الحربية ، فتقدم أسطول البندقية ورمى كل من سوسة وصفاقص وحلق الوادي لكن بدون جدوى ، وفي الأخير رضيت البندقية بدفع الغرامة وانعقد الصلح بين تونس والبندقية. ينظر حسن حسني عبد الوهاب ، مرجع سابق، ص188 وينظر أيضا : *M. Thomas Maggill, Op. cit., p. 37*

50. *E. Plantet, Tunis, Tome 3, Op. cit., p. 110.*

51. يحيى بو عزيز ، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1500-1830)، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، 1980، ص 116.

52. *Dr. Louis Frank, Histoire de Tunis, Op. cit., p. 198.*

53. *Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. cit., p. 318*

54. مصطفى باشا، كان رجلا صالحا شجاعا، انشأت وبنيت القصور في عهده، كم تن انشاء برج راس التافورة خارج باب عزون و كذلك برج باب الواد، يقال انه انه كان تاجرا ثم موظفا بسيطا في القصر ثم ارتقى الى رتبة خزناجي في الحكومة، تولى الحكم في 19 افريل 1798، أهم اتفاق ابرم في فترة حكمه العمل بمعاهدة الصلح مع امريكا لسنة 1795، في عهده ايضا أعلنت الحرب على فرنسا في ديسمبر 1798 والقي القبض على السفير الفرنسي، كما اشتد النزاع في عهده بين رؤساء البحر وقادة الأسطول الفرنسي، من الجانب الداخلي ظهرت ثورات و اضطرابات اكتفت القطر الجزائري /و كان قوامها مشايخ الطرق الصوفية، تجلت أيضا التحرشات الانكليزية فاخذت الدولة في تعزيز القوات البحرية، انتشر انذاك القحط بقسنطينة سنة 1800، ومن اجل تلبية مطالب السكان و التخفيف من شدة الجوع فتح باب الغزو البحري ابوابه على مصراعيه، انفجرت الثورة القومية تزعمها المختار التيجاني صاحب الطريقة التيجانية التي كان منبعها عين ماضي قريبا من مدينة الاغواط، ومن اخطر ما حدث في عهده تدخل اليهود في دولا ب الاقتصاد الجزائري واحتكارهم للتجارة ينظر: Ernest, *Histoire de Constantine ... Op. cit., p. 319* .
*H. de Grammont, Histoire d'Alger, Op. cit., p. 215, and Ernest, Histoire de Constantine ... Op. cit., p. 312.*⁵⁵
*Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. cit., p. 312.*⁵⁵
Ibid., p. 312.56 .

57. ابن ابي الضياف، إتخاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس في عهد الأمان، الجزء 2 تونس، ص 40 .

58 المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

59 المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

60 . *Dournon, Kitab tzrikh Quosantina, par El Hadj-Ahmed el Moubarek, in R.A., 1913, n° 5, p. 280.*

61 . *Ibid., p. 280.*

62. ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 2، ص 41 .

63. *Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. cit., p. 321.*

64. *Plantet, Tunis, Tome 3, Op. cit., p. 470 and Rousseau, Op. cit., p. 252.*

65. صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، مصدر سابق، ص 37.
66. تقع كدية عاتي عند مدخل قسنطينة بناحية الجنوب الشرقي منها، المصدر نفسه، ص 37.
67. *Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. cit., p. 231.*
68. ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 3، ص 42.
69. هو المكان الذي اعتصم به الباي حسين وجد بجنوب مدينة سطيف، ينظر: *Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. cit., p. 322, and Pechot, Op. cit., p. 116.*
70. *Pechot, Op. cit., p. 128 et El Hadj Ahmed El Moubarek, in R.A., p. 282.*
71. صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، مصدر سابق، ص 38.
72. *El Hadj Ahmed El Moubarek, Op. cit., p. 283.*
73. صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، مصدر سابق، ص 38.
74. *Ernest Mercier, Histoire de Constantine, p. 325.*
75. صالح العنتري، مجاعات، مصدر سابق، ص 38. ينظر أيضا: *Plantet, Tunis, Tome 3, Op. cit., p. 470.*
76. صالح العنتري، مجاعات، مصدر سابق، ص 38.
77. رشاد امام، سياسة حمودة باشا الحسيني في تونس، المجلة التاريخية المغربية، رقم 6 سنة 1975، ص 115.
78. *Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. cit., p. 326.*
- 79- *Alfonse Rousseau, op. cit., p. 243 et Vayssette, Op. cit., p. 80.*
- 8¹. *Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. cit., p. 327.*
82. *Ibid., p. 327.*
83. صالح العنتري، مجاعات....، مصدر سابق، ص 39.
- Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Op. cit., p. 320.84.*
85. ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ج 3، ص 50 وأيضا: عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ج 3، ص 306.
86. المرجع نفسه، ص 306.
87. نفسه، ص 307.
88. نفسه، ص 307.

89. ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 509.
- 90 - *Lettres de Jonville à Mrs Echevins et Députés du commerce de Marseille*, 26/03
03/09/1741, In, *Correspondances des Consuls d'Alger*, Op. Cit, pp 260,269.
91. *H'sen Derdour*, Annaba, T2, S.N. E. D, Alger, 1983, P157.
92. أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، ذخائر
المغرب العربي، تحقيق أحمد توفيق المدني، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1980 ط 2 ص 51
- 93- *L'Abbé Poirer*, Lettre de Barbarie (1785-1786), *Le Sycomore*, Paris, 2^{ème}
édition, 1980, P51.
94. *Lucien Raynard*, Op. Cit, P 308.
95. ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 2000، ص 509.
96. *H'sen Derdour*, Op. Cit, P158.
97. لعربي إسمهان، الامتيازات الفرنسية في الشرق الجزائري (1741. 1794) من خلال وثائق
مخطوطة، باشراف أ. د. بن نعمية عبد المجيد، السنة الامعية 2005. 2006، جامعة وهران، ص 195.
98. العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين (1792-1830)، المؤسسة
الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 2، 1984، ص 51.
99. ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 562.
100. فرسان الدايرة : يقصد بهم رجال الحرب والفرسان الذين يتم اختيارهم من مختلف
القبائل، ويتأسسهم أغا الدايرة، يبلغ عدد أفراد كل دايرة تقريبا 1000 فارس، كانوا
يعسكرون في مواطن مختلفة من أجل المراقبة. ينظر: صالح بن العنتري، تاريخ قسنطينة،
مصدر سابق، ص 25.
101. حمدان خوجة، إتحاف المنصفين و الأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق،
محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، هامش ص 46.
102. *Kokovtsov Matvei Grigoievitch*, " Une description de la côte barbaresque au
18ème siècle" par un officier de la marine russe, 1776, 1777, publié par M. Canard, in
R.A, 1951, n° 95, P 175.